النضج
وأثره في حياة الإنسان

المرجع الديني الراحل
آيَة اللّه العُظمَىٰ
الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي
(أعلى الله درجاته)

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

تهميش:
مؤسسة المجتبى للتحقيق والنشر
٢

بيروت ـ لبنان

النضج
وأثره في حياة الإنسان

٤

سورة الفاتحة

كلمة الناشر

يعتبر النضج العقلي هو غاية من أهم الغايات التي يلزم على الإنسان أن يحاول الوصول إليها، واستحواذ قصب السبق في ميدانها؛ وذلك للطبيعة الذاتية في كوامن النفس الإنسانية، مما يجعل من الإنسان أن يحاول في الارتقاء والسمو.

ولا يمكن للإنسان أن يرتقي في مداركه، إن لم يكن على مستوى عال من الإدراك والوعي المعبر عنه بالنضج والرشد. وهذا القرآن الكريم كتاب الله الناطق يأمر الإنسان المؤتمن بأن لا يدفع الأموال التي اؤتُمن عليها لأصحابها حتى يبلغوا مرحلتين، مرحلة البلوغ العمراني، وثانياً مرحلة البلوغ العقلي..

قال تعالى: ﴿وَابْتَلُواْ الْيَتَامَىَ حَتّىَ إِذَا بَلَغُواْ النّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافاً

وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ﴾[1].

والنضج: هو الاستواء.. يقال للفاكهة: ناضجة، إذا بلغت مبلغاً يمكن لنا أن نقطفها ونأكلها.. ولذا يقال: إن قطف الفاكهة قبل نضجها فساد لها.. وتركها بعد استحقاق جناها كذلك فساد لها.

فالنضج: حق الاستحقاق والقطاف للفواكه... والإنسان كالثمار ـ والرواية عن المرأة خاصة ـ والنضج للإنسان هو البلوغ الشرعي للتكليف.. أي وصول الإنسان الى مرحلة يكون مؤهلاً كي يقوم بأعباء التكليف وأداء الواجبات والمهام وفق ما أمره الله تبارك وتعالى.

وقد قال الرسول الأكرمﷺ: «إن جبرئيل أتاني عن اللطيف الخبير فقال: إن الأبكار بمنزلة الثمر على الشجر إذا أدرك ثمره فلم يجتنى أفسدته الشمس ونثرته الرياح، وكذلك الأبكار إذا أدركن مايدرك النساء فليس لهن دواء إلا البعولة، وإلا لمن يؤمن عليهن الفساد؛ لأنهن بشر»[2].

والحديث عن النضج حديث عن بدء العطاء للإنسان، والعبد

---

(١) سورة النساء: ٦.

(٢) الكافي: ج٥ ص٣٣٧ باب ما يستحب من تزويج النساء عند بلوغهن ح٢.

المؤمن عليه أن يبدأ ببناء نفسه من تلك السنين المبكرة، قبل أن يسمك الحجاب وتكثر الذنوب، ويتلوث القلب بأمراض ومكروبات روحية قتالة، كالكبر والحسد والحقد والضغينة، وغير ذلك...

فإذن، نحن بحاجة إلى النضج سواء كنا على مستوى أمة أو أفراد، لكي نبني حياة يعلوها السلام والأمن والاستقرار والرفاهية؛ والإسلام دين حياة ومستقبل يؤمن للإنسان مستلزمات حياته. ولذلك نرى العلماء (رضوان الله تعالى عليهم) يسعون جاهدين لإخراج الأمة من الضلال إلى نور الهداية، ومن الجهل إلى نور العلم والحقيقة، لأن مسيرتهم هي امتداد مسير الأنبياء عليهم السلام فإنهم ورثةُ الأنبياء[1].

والنضج الذي نتناوله في هذا الكتاب: هو النضج العقلي (العالمي والعلمي) لأنهما قرينان لا يفترقان لتحصيل نتائج إيجابية في هذه الحياة.. ومن هذا النضج ينطلق الإنسان لاتخاذ قراراته العادية والمصيرية والحساسة عند الأزمات والشدائد.. وفي هذه الأخيرة يتوضح مستوى النضج العقلي بشكل جلي وواضح ومؤثر.

---

(١) إشارة إلى الحديث الشريف: (إن العلماء ورثة الأنبياء) الكافي: ج١ ص٣٢ باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء ح٢.

فالناضج هو الحكيم في تصرفاته وقراراته، والذي لا يملك هذه المادة تكون قراراته ارتجالية وسريعة أو متسرعة، ويعلم سقم قراره وتفكيره بعد حين قد يطول أو يقصر، وغالبا ما يندم حيث لاينفع الندم.

والإمام الراحل السيد محمد الحسيني الشيرازي (أعلى الله درجاته) يطرح هذا الموضوع في هذا الكراس، يدعونا للسعي لامتلاك النضج والبصيرة الحقيقية للحياة التي نعيش فيها.

لأن الذي لا يملك هذا النضج يتيه في المجتمع، ويتخبط في الليالي خبط عشواء، ويحمل مع الرياح حيثما مالت، ويكون مصداقاً لقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «..همج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا الى ركن وثيق..»[1].

ومسألة النضج أوضح ما تكون واضحة في المجتمع بالنضج السياسي؛ لأن السياسة المعاصرة عادة ما تكون كاذبة متقلبة، فإذا لم يمتلك الإنسان النضج اللازم فإنه ينجذب باتجاه أي طرح سياسي أو فكر حزبي يدعى إليه، وبذلك يكون كالقشة تتلاعب بها الرياح

(١) نهج البلاغة، الحكم: ١٤٧.

يميناً وشمالا ، فتقرقع فوق الصفاح ولا تدري من الحقيقة شيء .

ونحن في مؤسسة المجتبى، إذ نقوم بنشر هذه المجموعة من الكتب القيمة التي أجاد بها الامام الراحل (أعلى الله مقامه) مقدمة لنضج المسلمين، لاسيما شعبنا العراقي المظلوم الذي تجري فيه تحولات كبيرة، لا يعلم إلا الله إلى أين يسير فيهم الركب إذا لم يملكوا النضج الكافي في اتخاذ القرارات الصائبة والمناسبة والتعامل مع الواقع بكل روية وبصيرة.

سائلين الله أن ينفع المؤمنين بهذا الكتاب كما نفع بغيره، وأن يتغمد إمامنا الراحل بوافر رحمته ، إنه سميع قريب مجيب.

مؤسسة المجتبى للتحقيق والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

آثار النضج

قال تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1].

إن من الأمور الصعبة والمهمة التي يلزم على الإنسان السعي وراءها وتحصيلها هو النضج، بمعنى أن يكون الإنسان ناضجاً في فكره وسلوكه. ولصعوبة الوصول إلى هذا المستوى نرى أنه لا يستطيع كل شخص الوصول إليه، ولا يتمكن تحصيله بسهولة؛ إذ أن هذا المستوى يتحصل من أثر توالي الأحداث، وتقلب الأحوال، وممارسة الصعاب، وحفظ التجربة، وبهذه الأمور وشبهها ينقدح النضج في داخل الإنسان ويترعرع وينمو.

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٥.

وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «من تورط في الأمور غير ناظر في العواقب فقد تعرض لمفظعات النوائب، والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم، والعاقل من وعظته التجارب، وفي التجارب علم مستأنف، وفي تقلب الأحوال علم جواهر الرجال»[1].

فعندما يصل الإنسان إلى مفترق طرق، ويكون نهباً لمشاكل وصعاب، تتقاذفه من هنا وهناك، حينئذ يتبين جوهر الإنسان حيث النضج أو عدمه.

ذكر في قصة حدثت في زمن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: أن امرأة كانت تصر على زوجها ليتزوج بامرأة أخرى، ولكنه لم يكن يستجيب لها، بل كان يعللها ويسوفها، وبعد مدة رضخ لرأيها وتزوج بامرأة أخرى، وبمجرد أن رأت الزوجة الأولى الوضع الجديد، وأن ضرة نزلت بيتها انقلب حالها واضطربت، وفجأة خرجت من البيت كاشفة شعرها مضطربة، متوجهة إلى المسجد لتعرض قضيتها على النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، وعندما رآها صلى الله عليه وآله بهذه الحال بادر إلى إلقاء عباءته عليها ليسترها، وجاء زوجها في إثرها

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٣٨٨ باب النوادر ح٥٨٣٤.

إلى رسول اللهﷺ ودار بينهم كلام طويل حتى انتهى إلى توافق الزوجين وتصالحهما ثم عادا معاً إلى الدار.

والشاهد في هذه الرواية: إن المرأة هذه ربما لم تكن تمتلك النضج الكافي ولم تعلم بما سيجري عليها؛ وإنما كانت تتأثر بتقلب الأحوال بسرعة عجيبة بحيث تفقد معها عقلها وتتصرف تصرفاً غير لائق بها، كما خرجت إلى المسجد كاشفة عن رأسها؛ فلم تكن تعلم بأنها غير قادرة على تحمل (ضرّة) تنزل عليها، ولكن عندما تحقق الأمر خرجت وهي كاشفة الرأس.

مراقبة النفس

قال أمير المؤمنينعليه السلام: « من أحكم التجارب سلم من المعاطب»[1].

وقال الإمام السجاد علي بن الحسينعليه السلام: « ابن آدم، إنك لاتزال بخير ما كان لك واعظ من نفسك، وماكانت المحاسبة من همك، وما كان الخوف لك شعاراً، والحزن لك دثاراً، ابن آدم

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٤٤٤ ق٦ ب٤ ف٣ ح١٠١٦١.

إنك ميت ومبعوث وموقوف بين يدي الله، فأعد جواباً».[1]

إن الإنسان ربما يقف على اعتاب المستقبل وهو جاهل تماماً بما تخبئ له الأيام التالية، ولا يقدر أن يكشف ذلك أو يتنبأ به ليتخذ بإزائه الموقف الصحيح المعقول؛ ولذلك عليه أن يراقب نفسه وتصرفاته بدقة حتى لا يأتي عليه يوم يفقد فيه عقله وتوازنه أمام الحوادث والمشكلات بسبب قلة تجاربه، فيظهر أمام الآخرين وقد انكشف جوهره، وشخصيته الضعيفة المنهزمة وغير الناضجة.

وكيل السيد أبي الحسن الأصفهاني رحمه الله

كان من الأساليب الحكيمة للسيد أبي الحسن الأصفهاني قدس سره[2] في إدارة شؤون الناس، هو أنه قدس سره كان يختار ويصطفي رجالاً من العلماء ليكونوا وكلاء عنه في البلدان المختلفة.. فيبعثهم إلى مختلف

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٦ ص٩٥ ب٩٦ ح٢١٠٧٦.

(٢) هو السيد أبو الحسن بن السيد محمد بن السيد عبد الحميد الموسوي الأصفهاني، ولد سنة (١٢٨٤هـ) في أصفهان، ورد إلى النجف الأشرف أواخر القرن الثالث عشر وأقام في كربلاء المقدسة مدة، وبعد وفاة السيد محمد كاظم اليزدي رشح قدس سره للزعامة الدينية، وبعد وفاة الشيخ أحمد كاشف الغطاء قدس سره والشيخ الميرزا حسين النائيني قدس سره تهيأ له الظهور بالمرجعية العامة. توفي قدس سره في ذي الحجة عام (١٣٦٥هـ) في الكاظمية ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف ودفن في الصحن الغروي الشريف. انظر معارف الرجال: ج١ ص٤٦ الرقم ٢١.

البلاد لإدارة شؤون الناس، والقيام بالمهام الدينية هناك، من الوعظ والإرشاد وتوضيح المسائل الشرعية والإجابة عنها وإجراء عقود النكاح وغير ذلك من الوظائف التي تخص العلماء ورجال الدين عادة.

وقد ذكر أنه بعث مرة أحد الأفراد وكيلاً عنه إلى إحدى المناطق، وبعد مدة حدث خلاف كبير في تلك المنطقة، ولعل وكيل السيد كان طرفاً في النزاع، وهو أمر لا يليق بوكيل المرجع الديني؛ حيث يفترض فيه أن يكون دوره دائماً الإصلاح بين الناس لا صنع الخلاف بينهم. فاستقدمه السيد ليطلع على واقع الأمر ويعرف سبب الاختلاف، وعندما حضر هذا الوكيل عند السيد الاصفهاني قال له السيد: نحن بحاجة إلى وجودك في النجف عندنا هنا. قال ذلك من دون أن يستفسر سبب الاختلاف أو وجهه. ويلزم هنا أن نلاحظ كيف أن السيد قدس سره غيّر مهمة وكيله إلى مهام أخرى باحترام حيث قال: نحن بحاجة إلى وجودك هنا.

وكان هذا أسلوباً حكيماً وسليماً ومؤدباً يستعمله فقهاؤنا في حل المشاكل؛ إذ يتجنبون دائماً الشدة والعنف والغلظة في التعامل مع الأصدقاء والأعداء، ولا يوجهون إهانة لطرف من الأطراف أبداً، وهذه أخلاق الإسلام وسياسته الصالحة في إدارة الناس، قال

الله تعالى: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِك﴾[1].

ثم بعد ذلك استفسر بعض الحاضرين من السيد رحمه الله عن السبب الذي دعاه إلى عزل هذا الوكيل وبهذه الطريقة الهادئة، من دون سؤاله عن تفاصيل الاختلاف وسببه؟!

فأجاب السيد: عرفت بأنه لا يليق لهذا المنصب؛ وذلك أني عندما دعوته ليجلس بجانبي ـ حيث كان جالساً في نهاية المجلس ـ رأيته قام وجاء إليّ مهرولاً، فعرفت أنه لا يتمتع بالوقار والنضج في السلوك، وهذه صفات لا تمنح صاحبها أهلية إدارة مثل هذا المنصب الحساس، ولذلك لم أسأله عن سبب الاختلاف، لعدم الداعي له بعد الذي رأيته منه.

ولا يخفى أن وكيل المرجع هو وجه المرجع ومرآته التي تعكس ـ عادة ـ أخلاقه وسلوكه.

وذكر عن بعض الفضلاء الذي كان يجالس أحد مراجعنا الكبار (قدس الله أسرارهم) قال مرة: كلما استمرت مجالستي لهذا المرجع الكبير ازددت إعجاباً به وإخلاصاً له، فضلاً عن إعجابي الشديد

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

بعلميته القوية وتقواه وأخلاقه الفاضلة؛ وذلك لما كنت أراه من شدة ارتباطه بالناس من جهة، وشدة تأثر الناس به والتزامهم بتوجيهاته وإرشاداته، وكان سبب قوة روابطه الاجتماعية وتأثيره المتزايد في المجتمع هو النضج الكامل الذي كان يتمتع به في كل شؤونه.

النضج الاجتماعي

ذكر في قصة: أن عبداً هرب من سيده والتجأ إلى غابة، وبعد عدة أيام فوجئ بأسد ضار كان يتوثب لافتراسه وهو يزأر، فاستيقن أنه سوف يكون طعمة للأسد الذي سينهش لحمه ويفترسه بعد قليل، ولكن عندما اقترب منه الأسد جلس على الأرض متألماً من شيئ أصابه وهو يشير إلى قدمه، فانتبه العبد إلى أن هناك شوكة كبيرة في رجل الأسد تؤلمه كثيراً أعجزته عن الوثوب عليه وافتراسه، فعمد العبد إلى تلك الشوكة وأخرجها من رجل الأسد؛ ليحظى بعد ذلك بصداقة الأسد جراء عمله هذا..

فقام الأسد بإظهار تودده وحبه للعبد، حيث كان يأتي لزيارته في مخبأه كل يوم، واستمرت الأيام على هذه الحالة والأسد يزور الرجل كل يوم. حتى كان ذات يوم فلم يأت الأسد كعادته فاحتمل العبد بأن الأسد قد وقع في شباك الصيادين، وبعد مدة عثر عمال

السيد على الغلام فأخذوه مكتوفاً إلى مولاه في المدينة وحكم عليه بالموت، وكانت طريقة القتل في تلك المدينة تتم بإلقاء المحكوم عليه بالموت في حفرة كبيرة لا يستطيع الفرار منها، ثم يطلقون عليه أسداً جائعاً يفترسه حتى الموت، فعندما جعلوا هذا العبد في الحفرة أمام الأسد ضارٍ، وإذا بالأسد أقبل عليه يهز ذيله لإظهار حبه وصداقته له، فعرف العبد بأن هذا الأسد صاحبه السابق، وقد أدهش المنظر الناس كثيراً، وحملهم على اعتبار ما جرى مكرمة عظيمة وفضلاً للعبد، فأخذوا يصفقون له ويعظمونه، ثم جعلوه ملكاً عليهم طبقاً لما كان مرسوماً عندهم، من أن تنصيب الملك وعزله كان يتم بيدهم واختيارهم.

وشاهد كلامنا في هذه القصة ـ وإن كانت غير واقعية ومن صنع الخيال الأدبي ـ هو أن الناس كانوا لا يتمتعون بالنضج السياسي والثقافي في حق الانتخاب؛ فلذلك عزلوا ملكهم السابق عن منصبه وعينوا شخصاً آخر مكانه بلا داع أو مبرر. فهل يستطيع عبد غير ناضج على إدارة المدينة؟!

فهل كان تنصيب رجل محنك صاحب تجربة وأهلية سياسية وإدارية، متمتع بالصفات التي تؤهله لمنصب الرئاسة والملوكية، أفضل؟ أم تنصيب العبد الذي لم يكن يمتلك من مؤهلات الإدارة

سوى ما رأوه من علاقته بالأسد؟!

من الواضح أن المجتمع الذي لا يتصرف في شؤونه العامة طبق البصيرة والنضج، ولا يحكم العقل والمنطق السليم في أموره سوف يتردى في الحياة، وتسوء أوضاعه يوماً بعد يوم.

النضج حاجة عامة

إن النضج والوعي مسألة لا تخص أحداً دون أحد، بل تعم وتشمل حتى الهيئات والأحزاب والتجمعات المختلفة، وهو من العوامل الرئيسية لنجاح بعض الأحزاب أو الهيئات دون الأخرى؛ لأن موضوع النضج والاحتكام إلى العقل والبصيرة في السلوك من الأمور العامة التي تشمل الجميع.

وهو ليس بالأمر السهل والهين، وإنما بحاجة إلى التعب والجد والاجتهاد ليل نهار، والتحمل الكثير للصعاب والمشاكل، حتى يحصل الإنسان على درجة من التعقل والنضج تكون على شكل ملكة ثابتة في ذاته وكيانه، بحيث يستطيع أن يحل أكثر مشكلاته وأموره، ويتخذ مواقفه دائماً بالتي هي أحسن، وتحت ظل الحكمة والحنكة والذكاء.

الاستشارة من مقومات النضج

ومن أهم مقومات النضج هو الاستشارة، فإذا أراد الإنسان أن يكون ناضجا في قراراته فعليه باستشارة ذوي الرأي، ولا يستبد برأيه في الأمور.

علما بأن الاستشارة تبدأ بأصغر الأمور وتنتهي بأعظمها وهي

إدارة البلاد والعباد، فلا يحق للحاكم ـ غير المعصوم عليه السلام ـ أن يتخذ قرارات بشأن الأمة من دون الاستشارة، ومن هنا رأينا ضرورة شورى الفقهاء المراجع، واستشارة الأخصائيين الزمنيين، وعقد المؤتمرات الأقليمية والعالمية، واحترام الرأي الآخر، في سبيل الإنهاض بالأمة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليمن فقال وهو يوصيني: يا علي ما حار من استخار، ولا ندم من استشار»[1].

وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «من استشار لم يعدم عند الصواب مادحا، وعند الخطأ عاذرا»[2].

وقال علي عليه السلام: «ما عطب امرؤ استشار»[3].

وقال عليه السلام: «لا رأي لمن انفرد برأيه»[4].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «المستبد برأيه موقوف على

---

(١) وسائل الشيعة: ج٨ ص٧٨ ب٥ ح١٠١٢٥.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٨ ص٣٤٢ ب٢٠ ح٩٦١١.

(٣) مستدرك الوسائل: ج٨ ص٣٤١ ب٢٠ ح٩٦٠٦.

(٤) كنز الفوائد: ج١ ص٣٦٧ فصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وآدابه وحكمه.

مداحض الزلل»[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «وإن الجاهل من عد نفسه بما جهل من معرفته للعلم عالماً، وبرأيه مكتفيا»[2].

ضياع الجهود

كان في إحدى المناطق مجموعة من الرجال العاملين والنشطين من أجل الإسلام، يتعاهدون الموعظة والإرشاد دائماً من العلماء والخطباء، وكان العلماء ينصحونهم بالوحدة والتلاحم والانسجام، ولكنهم اتخذوا سبيل الاختلاف والاضطراب فيما بينهم، فخيم عليهم النزاع والتنافر حتى آل الأمر بهم في النهاية إلى تفرقهم وتلاشى كيانهم، فضيعوا كل الأتعاب والنشاطات التي بذلوها في هذا السبيل، وكان ذلك بسبب عدم النضج والتعقل والوعي في إدارة العمل.

ومن الواضح أنهم افتقدوا حب الناس وخسروا شعبيتهم التي قدّموا من أجلها الكثير؛ وذلك لأن الذي يعجز عن حل مشاكله ولم يتمكن من كسب وإدارة أعضائه الخاصين والعاملين معه فهو

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٠٥ ب٤٨ ضمن ح٤١.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٨ ص٣٤٢ ب٢٠ ح٩٦١٢.

عن كسب الآخرين أعجز.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «... احذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلاث بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم. فإذا تفكرتم في تفاوت حاليهم فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، وزاحت الأعداء له عنهم، ومدت العافية به عليهم، وانقادت النعمة له معهم، ووصلت الكرامة عليه حبلهم، من الاجتناب للفرقة، واللزوم للألفة، والتحاض عليها، والتواصي بها. واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم، وأوهن منتهم، من تضاغن القلوب، وتشاحن الصدور، وتدابر النفوس، وتخاذل الأيدي.

وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم، كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء، ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء وأجهد العباد بلاء وأضيق أهل الدنيا حالاً، اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب وجرعوهم المرار، فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة لايجيدون حيلة في امتناع ولاسبيلاً إلى دفاع حتى إذا رأى الله سبحانه جدَّ الصبر منهم على الأذى في محبته والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً، فأبدلهم العز مكان الذل والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً

حكاماً وأئمة أعلاماً، وقد بلغت الكرامة من الله لهم ما لم تذهب الآمال إليه بهم. فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة ، والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة. ألم يكونوا أربابا في أقطار الأرضين، وملوكا على رقاب العالمين؟ فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم، حين وقعت الفرقة، وتشتتت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرا للمعتبرين...»[1].

النضج الطبي

أصيب شخص في العراق بألم شديد في قدمه، فراجع الكثير من الأطباء لأجل العلاج ولكنه لم يجد عندهم شفاء ولا فائدة، وفي النهاية يئسوا من معالجته والقضاء على آلامه إلا بقطع رجله، فلم يستجب المريض لذلك.

وفي ذات يوم سافر هذا المريض إلى مدينة الكوفة فصادف على جسر الكوفة رجلاً من البدو، وبعدما تعرف عليه وصادقه، شكا له

(١) نهج البلاغة، الخطب: ١٩٢ من خطبة له عليه السلام تسمى القاصعة.

مرضه الشديد، فوصف له ذلك البدوي علاجا، فقال: خذ عدة ضفادع وشق بطونها من الوسط، وضعها على موضع الألم وشدها برباط.

يقول صاحب القصة: فعلت ذلك كما قال لي البدوي، وبعد أربع وعشرين ساعة فقط ارتفع الألم وارتحت منه، ولم يعد ليّ ذلك الألم أبداً!

والشاهد في هذه القصة هو: الإشارة إلى أن أهمية العلوم ليست فقط بالتعلم وفهم مسائلها، بل الأهم من ذلك هو النضج، وهكذا في الطب، حيث من الضروري النضج الطبي لدى الأطباء، وعدم التسرع واليأس من علاج المريض لمجرد ممارسة العلاج معه لفترة معينة، بلا تأكد تام وكامل من طرق العلاج؛ إذ أن بعض الأطباء ربما لا يتمتع بالتجارب الكافية التي تمنحه القدرة اللازمة على مكافحة الأمراض وتشخيص العلاج لها، ولا يمتاز بالنضج والمهارة الكافية في عمله، الأمر الذي يدعو أحياناً إلى التسرع في الحكم على المريض بعلاجات صعبة وعسيرة، كان من الممكن علاجه بطرق أسهل وأيسر لو تأنى ودقق وفحص أكثر، كما حكم بعضهم على هذا المريض بقطع ساقه بلا تحقيق أو تدقيق في احتمال وجود علاج آخر، أو بالاعتقاد بأن هذا العلاج ـ القطع ـ هو

الوحيد.

النضج العلمي لدى الشيخ الأنصاري قدس سره

لقد امتاز الشيخ المرتضى الأنصاري قدس سره[1] بالعمق والنضج

---

(١) هو الشيخ مرتضى محمد أمين الدزفولي الأنصاري، ينتهي نسبه إلى جابر بن عبد الله الأنصاري (رضوان الله عليه)، ولد بدزفول سنة (١٢١٤هـ) وتوفي سنة (١٢٨١هـ) ودفن في المشهد الغروي. وهو الأستاذ الإمام المؤسس شيخ مشايخ الإمامية، قدم العراق وهو في العشرين من عمره، فورد كربلاء المقدسة وكانت الأستاذية والرياسة العلمية فيها لكل من السيد محمد المجاهد، وشريف العلماء، فرغّب الأول إلى والده أن يتركه في كربلاء المقدسة للتحصيل، على إثر مذاكراته وظهور قابليته، فبقي آخذاً عن الأستاذين، خرج إلى الكاظمية المقدسة وعاد إلى وطنه واختلف إلى شريف العلماء. مر بكاشان عند خروجه لزيارة مشهد الرضا عليه السلام ففاز بلقاء أستاذه النراقي قدس سره، مما دعاه للإقامة ثلاث سنين في كاشان، وحكي عن النراقي قوله: لقيت خمسين مجتهداً لم يكن أحد منهم مثل الشيخ مرتضى، ورد النجف الأشرف عام

(١٢٤٩هـ) أيام الشيخ علي بن الشيخ جعفر وصاحب الجواهر، ثم انفرد بالتدريس واستقل، ووضع أساس علم الأصول الحديث عند الشيعة الإمامية، إلى أن انتهت إليه رياسة الإمامية العامة بعد وفاة الشيخين، وصار على كتبه ودراستها معول أهل العلم، وكان قدس سره يملي دروسه في الفقه والأصول كل يوم في الجامع الهندي حيث يغص فضاؤه بما ينيف على الأربعمائة من العلماء والطلاب، وقد تخرج على يديه أكثر الفحول من علماء الإمامية، مثل الميرزا الشيرازي والميرزا حبيب الله الرشتي، والسيد حسين الترك، والشرابياني والمامقاني والميرزا أبي القاسم الكلانتري.

وعلى الرغم من المكانة السامية التي وصل إليها في المرجعية العامة، إلا أنه عاش مواسيا الفقراء، حريصا على مساعدة المعوزين والمساكين من كل ما يصله من الحقوق ←

العلمي الشديد في آرائه، فقد كان يتابع أقوال وآراء سائر الفقهاء، قولاً قولاً ورأياً ورأياً، ويفسرها ويوضحها، ويقلب وجوهها، ولايقبلها أو يؤيدها أو يردها بدون تدقيق وتحقيق.

مثلاً:

قاعدة: «على اليد ما أخذت حتى تؤدي»[1]، وقاعدة: «ما يضمن بصحيحه يضمن بفاسده، وما لا يضمن بصحيحه لا يضمن

→

الشرعية، كان ﷺ قمة في الأخلاق والفضائل والكمالات لا يحب الظهور والمباهاة، باذلا وسعه في تحصيل الكمال الروحي.

أبرز صفاته الزهد والورع والتقوى والتواضع الى أقصى حد.

أبرز مصنفاته ﷺ: الرسائل وكتاب المكاسب، علق عليهما الكثير من مشاهير العلماء. وكتاب الطهارة المعروف بطهارة الشيخ، وكتاب الصوم والزكاة والخمس، ورسائله الخمس المشهورة، وكثير غيرها. قال فيه أستاذه النراقي صاحب المناهج: لقيت خمسين مجتهداً لم يكن أحدهم مثل الشيخ الأنصاري.

انظر أعيان الشيعة: المجلد ١٠ ص١١٧ حرف (الميم).

(١) قاعدة فقهية شهيرة، مستنبطة من الحديث الشريف لرسول الله ﷺ: «على اليد ما أخذت حتى تؤدي». غوالي اللئالي: ج١ ص٢٢٤ ف٩ ح١٠٦. أي: أن كل من استولى على مال غيره ووقع تحت يده كان ضامناً له، تلف عنده أو عند غيره. للمزيد راجع القواعد الفقهية للإمام الراحل (أعلى الله مقامه): الفصل الأول قاعدة اليد، ضمان اليد.

بفاسده» [1] وغيرها من القواعد الفقهية المهمة، كان يدقق النظر فيها ويقلب وجوه النظر والرأي حتى ينتهي إلى النتيجة قبولاً أو رداً، بتحقيق ودقة، وبلا تسرع وملل؛ ولذا نجد أن كتابيه (الرسائل) في الأصول[2] و(المكاسب) في فقه التجارة[3]، أصبحا من أهم المحاور التي تدور حولها الدراسة الدينية في الحوزات العلمية، بسبب نضج مؤلفها وضلوعه في العلم، وقوته في التدقيق والتحقيق، وشمولها لأدق الآراء وأعمقها في هذين العلمين.

---

(١) المراد منه: أن كل عقد يوجب الضمان في فرض الصحة يكون كذلك في فرض الفساد، والمراد منه هو الذي يتعلق بالمعاملة المادية، وهي قاعدة استقرائية حصلت في باب العقود التي تنبثق منها القاعدة، ووجد الفقهاء أن كل عقد مثل البيع والجعالة وغيرهما، الذي يحقق الضمان في صحيحه يتحقق الضمان في فاسده، ولكل من الموارد دليل خاص مذكور في محله.

(٢) قال الشيخ آقا بزرك الطهراني في الذريعة الى تصانيف الشيعة: ج٦١ ص١٣٢ تحت الرقم٢٩٣: فرائد الاصول، المشهور بالرسائل، للشيخ المرتضى الانصاري م (١٢٨١هـ) وهو مشهور متداول لم يكتب مثله في الآواخر والأوائل. محتو على خمسة رسائل في القطع والظن والبرائة والاستصحاب والتعادل. أسس في هذه المباحث تأسيسا نسخ به الأصول الكربلائية، ونسج على منواله المتأخرون حتى صار الفخر في فهم مراده، وكتب كل شرحا أو حاشية عليه، بقدر ما غمر فيه فكره ودرى.

(٣) المتاجر أو المكاسب، كتاب جليل لم يكتب مثله في التحقيق والدقة، عكف عليه عامة من تأخر عنه من تلاميذه وتلاميذهم وعلقوا عليه الحواشي والتعليقات، انظر الذريعة: ج١٩ ص٦١ تحت الرقم٣٢٢.

نظرة إلى التاريخ العباسي

كان هارون العباسي أحد سلاطين بني العباس[1]، وللأسف يعتبره بعض الغربيين الملك الأكبر للبلاد الإسلامية، حيث جعلوا منه شخصية عالمية مهمة؛ تشويها للإسلام. ولولا وجود الحوزة العلمية في إيران لسرى ذلك التشويه حتى إلى إيران أيضاً في تقديس

---

(١) هو هارون بن محمد المهدي بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، أحد حكام بني العباس، ولد في الري سنة (١٤٥هـ)، أمه الخيزران وهي أم ولد يمانية، تولى الحكم في دولة بني العباس بعد أخيه الهادي سنة (١٧٠هـ)، لم يشتهر من العباسيين أحد شهرته، حيث نسجت حوله الأساطير والقصص الخيالية بشكل كبير، أما شهرته في إدارة الدولة فلعله تعزى إلى البرامكة الذين كانت مهام الدولة الكبرى موكلة اليهم خلال سبعة عشر سنة، يقول عنه صاحب شافية أبي نواس: إن الرشيد ـ وهذا لقبه ـ أول خليفة لعب بالصولجان والشطرنج والنرد. أما سياسة التنكيل بالعلويين فهو مما لا يخفى، حيث كان مصمما على استئصالهم وملاحقتهم تحت كل حجر ومدر، وكان قد سجن الامام الكاظم عليه السلام وقتله بالسم. هلك هارون سنة ١٩٣في خراسان مخلفاً تأريخاً يضج بالظلم واحتقار الرسالة المحمدية والإنسانية. للمزيد راجع: الشيعة والحاكمون: ص١٥٥، وعيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١ ص١٠٩.

هذا السلطان الظالم، كما نواجه ذلك في صلاح الدين الأيوبي[1]

(١) صلاح الدين الايوبي (٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ) (١١٣٧ـ ١١٩٣م) يوسف بن أيوب بن شاذي وقيل: شادي، كان أبوه وأهله من قرية دوين في أواخر إقليم أذربيجان، من قبيلة الهذانية من الأكراد، نزلوا بتكريت، وولد بها صلاح الدين، وتوفي فيها جده شاذي. ولي أبوه (أيوب) أعمالا في بغداد والموصل ودمشق. نشأ يوسف بن أيوب في دمشق، دخل مع أبيه وعمه (شيركوه) في خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (صاحب دمشق وحلب والموصل) واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه في حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر سنة (٥٥٩ هـ) فكانت وقائع ظهرت فيها مزايا صلاح الدين العسكرية. وتم لشيركوه الظفر بعدة معارك وحملات باسم السلطان نور الدين، فاستولى على زمام الامور بمصر. وذكر أن العاضد الفاطمي هو الذي استنجد بنور الدين يستنصره على الفرنج الذين يغزون مصر، فاستوزر شيركوه لما وصل مصر، وكتب له عهدا لم يعهد مثله لوزير، ولكن شيركوه ما لبث أن مات. فاختار العاضد للوزارة وقيادة الجيش صلاح الدين، ولقبه بالملك الناصر. استقل صلاح الدين بملك مصر، بعد أن غدر بالعاضد الفاطمي، وتمرد على سيادة نور الدين زنكي. قطع صلاح الدين الخطبة للعاضد الفاطمي، وخطب للعباسيين، وذكر أن سبب مرض وموت العاضد هو لما رأى من صلاح الدين من محاصرته وتجريده لصلاحياته وأخيرا قطع الخطبة باسمه، فكان موت العاضد وانتهى بذلك أمر الدولة الفاطمية. وعلى الرغم من أن العاضد كان قد استوزر صلاح الدين الأيوبي ولقبه بالملك الناصر، وأكرمه غاية الإكرام، إلا أن صلاح الدين كان حاقداً على الدولة الفاطمية ←

→

يتحين الفرص للانقضاض عليها، فتعاضد مع القاضي عبد الرحيم بن علي البيساني على إزالة الدولة الفاطمية، وقام بعزل قضاة الشيعة ولما تم له ذلك استبد بالسلطة، وأسس الدولة الأيوبية سنة (٥٦٤هـ) وامتد سلطانها من النيل إلى دجلة، وعرفت الدولة الأيوبية بطابعها المتعصب المجافي لأتباع أهل البيت عليهم السلام، كما قبض صلاح الدين على أسر ة العاضد وحبسهم وأنزل أصحابه في دورهم، وفرق بين النساء والرجال حتى لا يتكاثروا.

وكان صلاح الدين قد بعث إلى أبيه وإخوته وأهله فاستقدمهم مصر، واستولى على دور الأمراء الفاطميين واقطاعاتهم ووهبها لأقاربه، ثم عزل قضاة الشيعة واستناب عنهم قضاة شافعية، وأبطل من الأذان (حي على خير العمل) وحمل الناس على التسنن وعقيدة الأشعري ومن خالف ضربت عنقه، وحارب الشيعة والتشيع بشدة حتى قتل منهم خلقا كثيرا، وأمر أن لا تقبل شهادة أحد ولا يقام للخطابة ولا للتدريس إلا إذا كان مقلداً لأحد المذاهب الأربعة، وأعاد يوم قتل الحسين عليه السلام عيداً الذي كان قد سنه الحجاج وبنو أمية، وأباد كل المكتبات ودور العلم والتراث الديني والإسلامي، قال الخفاجي في كتاب الأزهر في ألف عام، ج١ ص٥٨: غالى الأيوبيون في القضاء على كل أثر للشيعة.

وذكر: أنه لما مات نور الدين سنة (٥٦٩هـ) الذي كان قد أحس بوحشة من صلاح الدين حتى ذكر أنه قرر المسير إليه، فاضطربت البلاد الشامية والجزيرة لموته، وما لبث أن سار صلاح الدين إلى دمشق فاستولى عليها، وذلك سنة (٥٧٠هـ). وانصرف إلى ما وراءها، فاستولى على بعلبك وحمص وحماة
←

حيث يقدسه البعض مع ما ارتكب من الجرائم الكبيرة في حق الإسلام والمسلمين.

يذكر أنه في إحدى السنين عزل هارون واليه على خراسان (الفضل بن يحيى البرمكي) [1] ونصب مكانه (علي بن ماهان)

→

وحلب. انقطع عن مصر بعد رحيله عنها (سنة ٥٧٨هـ) إذ تتابعت أمامه الحوادث، وفي أيامه وقعت عدة حروب مع الصليبيين.

قال أبو زهرة: دخل صلاح الدين إلى حلب (٥٧٩هـ) وحمل الناس على التسنن وعقيدة الأشعري، ولم يقدم للخطابة ولا التدريس إلا من كان مقلداً لأحد المذاهب الأربعة ووضع السيف على الشيعة، فقتلهم وأبادهم مثل عمله في مصر.

انظر الشيعة والحاكمون: ص١٩٠ نقلا عن مصادر العامة، والأزهر في ألف عام، وأعيان الشيعة المجلد الأول، وتاريخ الشيعة للمظفر، وانظر المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار للمقريزي: ج٢ ص٢٣٣. وغنية النزوع: ص١٠. والأعلام للزركلي: ج٨ ص٢٢٠ صلاح الدين الأيوبي. وسير أعلام النبلاء: ج٢١ ص٢٨٤.

(١) أبو العباس الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك (١٤٧ ـ ١٩٣) أخو هارون من الرضاعة، قلده هارون العباسي الوزارة وتولى خراسان، والبرامكة أسرة عريقة من بلخ ينتسبون إلى جدهم برمك الذي كان عالما في الطب والتنجيم. وقد تقلدت هذه الأسرة منصب الوزارة للعباسيين فترة طويلة وكان لهم دوراً بارزاً في سياسة الدولة العباسية. وان أول من اتصل من البرامكة بالعباسيين هو خالد بن برمك، ←

وكان ابن ماهان رجلاً متملقاً وظالماً وقاسي القلب؛ ولذلك كان يمعن في أخذ الضرائب والأموال من الناس، ويجحف في ذلك كثيراً ويرسلها إلى بغداد محملة على آلاف النياق.

وذات يوم قال هارون ليحيى وهو أبو جعفر البرمكي سائلاً: أين كانت تذهب هذه الأموال في زمن ولاية ابنك على خراسان، ولم يكن يبعثها إلى بغداد؟

وكان هارون يريد بقوله هذا أن يشير إلى عدم أهلية الفضل البرمكي وكفاءته في الولاية؟!

فقال له يحيى: سوف يأتي يوم تضطر إلى صرف عشرة أضعاف هذه الأموال التي بعثها إليك (علي بن ماهان) من خراسان لتعيد سلطانك على أهلها وتخضعها لحكمك، ومع ذلك لا يعود الأمر إلى ما كان عليه أولاً! وكان يحيى صادقا في كلامه هذا وذلك لكثرة توغله في القضايا السياسية، وكانت رؤيته هذه نتيجة نضجه

→

الذي عرف بحصافة الرأي وشدة البأس، ولما تسلم الحكم هارون العباسي، بوأ البرامكة مكانة رفيعة حيث أوكل لهم الوزارة، وفي سنة (١٨٩هـ) تبدل طالعهم وأفل نجم ونزلت بهم النكبة التي عرفت بنكبة البرامكة، فقتل أغلب رجالهم وسجن الباقين حتى ماتوا في السجون، وصودرت أموالهم. انظر المنتهى في تاريخ الخلفاء للشيخ عباس القمي: ص٢٤٩.

السياسي.

وهكذا صار الأمر حيث ثار أهل خراسان ضد ظلم وإجحاف (علي بن ماهان)، مما اضطر هارون إلى تعبئة جيش كامل من أجل السيطرة على تلك الثورة الناشبة في خراسان وإخمادها، وقاد بنفسه ذلك الجيش وقد مرض في أثناء ذلك ومات هناك ودفن بخراسان، بعدما صرف أضعاف أضعاف ما أخذه (علي بن ماهان) من أهل خراسان!!

والانتهاء إلى هذه النتيجة كان واضحاً؛ لأن الحاكم الذي يضغط على الناس ويكرههم على دفع الضرائب والأموال يخرج حبه من قلوب الناس، ويفقد مكانته عندهم، الأمر الذي يعجل في سقوطه.

نضج الميرزا الشيرازي قدس سره

ينقل المرحوم السيد علي شبر قدس سره بأنه أرسل مجموعة من العلماء رسالة إلى الميرزا الشيرازي قدس سره في العراق[1] تنص على أن

---

(١) هو الشيخ محمد تقي بن الميرزا محب علي بن أبي الحسن الميرزا محمد علي الحائري الشيرازي زعيم الثورة العراقية، ولد بشيراز عام ١٢٥٦هـ ونشأ في الحائر الحسيني الشريف، فقرأ فيه الأوليات ومقدمات العلوم، وحضر على أفاضلها حتى برع وكمل، فهاجر إلى سامراء في أوائل المهاجرين، وحضر على المجدد الشيرازي ←

وكيل الميرزا في المكان الفلاني، أصبح متبطراً معتنياً بالأمور الدنيوية والمادية، وهو لا يليق بأن يكون وكيلاً عن المرجع الأعلى للطائفة، فطلبوا من الميرزا عزله عن هذا المنصب الحساس.

ولكن الميرزا تأنى في قراره وتصبر في اتخاذ الموقف، حتى فاتحه بعض علماء سامراء المقدسة بهذا الشأن وطلبوا منه بيان وجه توقف الميرزا في عزل هذا الوكيل؟

فأجابهم الميرزا: بأن هذا الوكيل كانت له ـ قبل أن يكون وكيلنا ـ شخصية اجتماعية بين الناس بدرجة خمسين بالمائة مثلا،

→

قدس سره حتى صار من أجلاء تلاميذه وأركان بحثه، وبعد أن توفى أستاذه الجليل تعين للخلافة بالاستحقاق والأولوية والانتخاب، فقام بالوظائف من الإفتاء والتدريس وتربية العلماء. ولم تشغله مرجعيته العظمى وأشغاله الكثيرة عن النظر في أمور الناس خاصهم وعامهم، وحسبك من أعماله الجبارة موقفه الجليل في الثورة العراقية، وإصداره تلك الفتوى الخطيرة التي أقامت العراق وأقعدته لما كان لها من الوقع العظيم في النفوس. فهو قدس سره فدى استقلال العراق بنفسه وأولاده وكان أفتى من قبل بحرمة انتخاب غير المسلم. وكان العراقيون طوع إرادته لايصدرون إلا عن رأيه وكانت اجتماعاتهم تعقد في بيته في كربلاء المقدسة مرات عدة. توفي قدس سره في الثالث عشر من ذي الحجة عام (١٣٣٨هـ) ودفن في الصحن الحسيني الشريف ومقبرته فيه مشهورة. راجع طبقات أعلام الشيعة، نقباء البشر: ج١ ص٢٦١ الرقم ٥٦١.

وعندما أصبح وكيلاً عني بلغت شخصيته الاجتماعية مائة بالمائة، ولو عزلته عن الوكالة فأكون سبباً لذهاب كل شخصيته وسقوطه اجتماعياً، ولا يجوز لي أن آخذ نصف شخصيته التي كانت له قبل الوكالة، وإنني الآن في تفكير متواصل لأجد طريقة جيدة عن كيفية استرجاع النصف المكمل لشخصيته فقط من دون المس بنصفه الأول!!

نعم، بهذه الخصائص النبيلة تمكن علماؤنا من قيادة الناس وإنقاذهم من الاستعمار في أيام المحن والآلام، والحفاظ على الإسلام في كل عصر[1].

والمسلمون إذا أوجدوا في أنفسهم البصيرة وبلغوا مرتبة سامية من النضج في العلم والعمل، سوف يتمكنون من نشر الإسلام وتطبيقه في العالم، وعند ذلك يدخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجا، وتعود للمسلمين سيادتهم وعزتهم التي كانت لهم في الصدر الأول بإذن الله تعالى.

كان المجدد الشيرازي رحمه الله من كبار العلماء الناضجين، ويتبين

---

(١) كما أن من أهم الأسباب التي جعلت العالم الغربي اليوم يتقدم ويحكم الدنيا هو بعض ما امتلك من النضج العلمي والعملي الذي يتمتعون به وإن كان لأهدافهم الدنيوية!!

ذلك من خلال مواقفه الحكيمة في قصة التبغ (التنباك)، وقصة يهود همدان، وقصة شراء أراضي طوس من قبل الروس، وقصة إنقاذ شيعة أفغانستان حيث قام السلطان المخالف المتعصب بذبحهم حتى جعل منائر من رؤوسهم.

وعندما هاجر الميرزا الكبير إلى سامراء المقدسة انتقلت الحوزة العلمية إليها وتجمع فيها العلماء والفضلاء وانتشرت تعاليم أهل البيت (عليهم السلام) وقوي أتباعهم وشيعتهم.

أسس مدرستين علميتين في سامراء، وبنى جسرا على شط سامراء، وبنى حمامين للمدينة للرجال وللنساء، قام بترميم روضة العسكريين عليهما السلام المطهرة، بنى سوقا كبيرا للمدينة، وبنى حسينية لإقامة مجالس عزاء الإمام الحسين عليه السلام فيها، بنى دورا كثيرة للفقراء، وكان ينفق حتى على فقراء السنة، في عام ١٣١١هـ قام بعض أيادي الاستعمار بإشعال نار الفتنة بين الشيعة والسنة، فقام الميرزا بإخماد تلك النيران بنضجه وحكمته ودرايته، فلما أرادت الوالي العثماني ببغداد والقنصلية البريطانية التدخل فيها أخبرهم بأن المسألة بسيطة وسنقوم بحلها ولا حاجة لتدخلهم فيها.

الهجمات الاستعمارية

إن العالم الغربي والشرقي المعادي للإسلام يشن في هذا اليوم

هجمات دعائية كاذبة ضد الإسلام والمسلمين، ويتهمهم بأنهم أمة متأخرة تنشر التفرقة والحرب والانحطاط أينما حلت، وقد نجح في تشويه صورة الأمة إلى حد كبير بحيث أصبح العالم ـ بعضه ـ لا يقيم للإسلام والمسلمين قيمة أو أهمية، وهذا بسبب قلة الوعي والنضج والحكمة التي أصبحت في المسلمين، فعلينا أن نزيح عن أفكار العالم هذه النظرة الخاطئة بنشر الموازين العلمية والتقدمية والأحكام الإلهية المنسجمة مع الفطرة الإنسانية في العالم.

وهذا ليس بالأمر الهين والسهل الممكن إلا بالعمل بموازين الإسلام، وإيجاد النضج الكامل والوعي التام في أنفسنا لنصل إلى درجة نكون فيها قادرين على هداية العالم أجمع ، ونشر العدل والرفاه والصلاح والاستقرار في كل البقاع والأرجاء.

قال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1].

نور المؤمنين في القيامة

جاء في الآيات الكريمة والروايات الشريفة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أن المؤمن يأتي يوم القيامة وتشع جبهته نوراً، وهو يحمل في يده اليمنى صحيفة أعماله الصالحة فرحا ومستبشرا، كما أنه

---

(١) سورة التوبة: ٣٣.

ينظر بنوره هذا إلى مسافات تختلف بحسبه[1] وذلك حسب أعماله الصالحة في الدنيا. فمنهم من يكون نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه.. ومنهم من يكون نوره كشجرة، ومنهم من يكون نوره مثل الرابة بيده، ومنهم من يعطى أصغر من ذلك، وبعض لا يعطى إلا على إبهام قدميه يضيء مرة ويطفأ أخرى.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنما المؤمنون يوم القيامة نورهم يسعى بين أيديهم حتى ينزلوا منازلهم في الجنان»[3].

وفي تفسير القمي: يقسم النور بين الناس يوم القيامة على قدر إيمانهم، يقسم للمنافق فيكون نوره بين إبهام رجله اليسرى فينظر نوره، ثم يقول للمؤمنين: مكانكم حتى أقتبس من نوركم فيقول المؤمنون لهم: ﴿ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾[4] فيرجعون ويضرب بينهم بسور له باب فينادون من وراء السور للمؤمنين

---

(١) أي بحسب النور وشدته وضعفه.

(٢) سورة الحديد: ١٢.

(٣) تفسير نور الثقلين: ج٣ ص٦١٢ سورة النور ح١٩٩.

(٤) سورة الحديد: ١٣.

﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾[1]، قال: بالمعاصي ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ قال: أي شككتم..

فالعمر قصير جداً والإنسان في كل آن معرض لزيارة ملك الموت له لأخذ روحه ونقله إلى عالم الأموات ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[2].

لذا على الإنسان أن يجمع ذرات النور ليوم الآخرة ما أمكنه، بواسطة الطاعات والأعمال الصالحة، ومن أهم الطاعات التي سعى إليها الأنبياء والنبي الأعظم والأئمة الطاهرون (صلوات الله عليهم أجمعين) هو نشر أحكام الله وتطبيق أحكام الإسلام، فلذا علينا أن نجعل معظم جهودنا في هذه الطاعة المهمة، ونهيئ لأنفسنا النضج الكامل حتى نستطيع أن نؤدي واجباتنا ومسؤولياتنا على أتم صورة وأحسن وجه لكي ننجح في إصابة الأعمال الحسنة وحتى لا نكون مسيئين من حيث نتصور أننا محسنين.

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

---

(١) سورة الحديد: ١٤.

(٢) سورة لقمان: ٣٤.

صُنْعاً﴾[1].

«اللهم ارزقنا توفيق الطاعة وبعد المعصية، وصدق النية وعرفان الحرمة، وأكرمنا بالهدى والاستقامة، وسدد ألسنتنا بالصواب والحكمة، وأملأ قلوبنا بالعلم والمعرفة، وطهر بطوننا من الحرام والشبهة، واكفف أيدينا عن الظلم والسرقة، واغضض أبصارنا عن الفجور والخيانة، واسدد أسماعنا عن اللهو والغيبة، وتفضل على علمائنا بالزهد والنصيحة، وعلى المتعلمين بالجهد والرغبة، وعلى المستمعين بالاتباع والموعظة»[2].

(١) سورة الكهف: ١٠٤.

(٢) مصباح الكفعمي: ص٢٨٠ ف٢٩ دعاء مروي عن الإمام المهدي(عجل الله فرجه الشريف).

من هدي القرآن الحكيم

النضج الفكري والحرية

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(١).

وقال عزوجل: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

النضج وعواقب الأمور

قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾(٣).

وقال جل وعلا: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ

---

(١) سورة الزمر: ١٧ -١٨.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٣) سورة الرعد: ٢٢.

وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

نور المؤمن في القيامة

قال عزوجل: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُور﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[4].

وقال جل وعلا: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾[5].

المؤمن وقور

---

(١) سورة الأعراف: ١٢٨.

(٢) سورة الزمر: ٢٢.

(٣) سورة النور: ٤٠.

(٤) سورة الأنعام: ١٢٢.

(٥) سورة الحديد: ٢٨.

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾[1].

وقال عزوجل: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الفرقان: ٦٣.

(٢) سورة لقمان: ١٩.

(٣) سورة الفتح: ٤.

من هدي السنة المطهرة

النضج الفكري والحرية

وفي حديث المعراج قال تعالى لحبيبه المصطفى ﷺ: «يا أحمد! استعمل عقلك قبل أن يذهب فمن استعمل عقله لا يخطئ ولا يطغى»[١].

وقال الإمام الجواد عليه السلام: «الرأي مع الأناة، وبئس الظهير الرأي الفطير»[٢].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنما يهلك الناس لأنهم لايسألون»[٣].

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»[٤].

---

(١) إرشاد القلوب: ج١ ص٢٠٥ ب٥٤.

(٢) كشف الغمة: ج٢ ص٣٤٩ ذكر الإمام التاسع عليه السلام، وأما مناقبه.

(٣) الكافي: ج١ ص٤٠ باب سؤال العالم ح٢.

(٤) نهج البلاغة: قصار الحكم ١٧١.

النضج وعواقب الأمور

قال الإمام الباقر □: «قال رسول الله □: إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن يك خيراً ورشداً اتبعته وإن يك شرا أو غياً تركته»[١].

وقال الإمام أمير المؤمنين □ لولده الحسين □: «من تورط في الأمور بغير نظر في العواقب فقد تعرض للنوائب، التدبير قبل العمل يؤمنك الندم»[٢].

وقال عليه السلام: «الفكر في العواقب ينجي من المعاطب»[٣].

وقال الإمام الصادق □: «قف عند كل أمر حتى تعرف مدخله من مخرجه قبل أن تقع فيه فتندم»[٤].

وفيما أوصى آدم عليه السلام إلى ابنه شيث: «إذا عزمتم على أمر فانظروا إلى عواقبه فإني لو نظرت في عاقبة أمري لم يصبني ما أصابني»[٥].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٤١٠ -٤١١ ح٥٨٩٤.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٣٠٦ ب٣٣ ح١٣١١٠.

(٣) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٣٠٧ ب٣٣ ح١٣١١٥.

(٤) تحف العقول: ص٣٠٣ وصيته عليه السلام لعبد الله بن جندب.

(٥) بحار الأنوار: ج٧٥ ص٤٥٢ ب٣٣ ح١٩ عن الدرة الباهرة.

المؤمن وقور

قال رسول الله □: «أحسن زينة الرجل السكينة مع الإيمان»[١].

عن الحلبي قال: قلت لأبي عبد الله □: «أي الخصال بالبر أكمل؟ قال: وقار بلا مهابة، وسماح بلا طلب مكافأة، وتشاغل بغير متاع الدنيا»[٢].

نور المؤمن في القيامة

قال الإمام السجاد □ في الدعاء: «اللهم وما أجريت علي ألسنتنا من نور البيان وإيضاح البرهان فاجعله نوراً لنا في قبورنا ومبعثنا ومحيانا ومماتنا»[٣].

النضج والتعلم في الشباب

قال رسول الله □: «من تعلم في شبابه كان بمنزلة النقش في الحجر ومن تعلم وهو كبير كان بمنزلة الكتاب على وجه الماء»[٤].

---

(١) الأمالي للصدوق: ص٤٨٧ -٤٨٨ المجلس٧٤ ح١.

(٢) التمحيص: ص٦٨ ب٩ ح١٦٦.

(٣) بحار الأنوار: ج٩١ ص١٢٦ ب٣٢ مناجاة له أخرى له صلى الله عليه تعرف بالصغرى.

(٤) دعائم الإسلام: ج١ ص٨٢ ذكر الرغائب في العلم والحض عليه وفضائل طالبيه.

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «لو أتيت بشاب من شبّاب الشيعة لا يتفقه لأدبته»[1].

وفي حديث قال عليه السلام: «لأوجعته»[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لست أحب أن أرى الشاب منكم إلا غادياً في حالين: إما عالماً أو متعلما، فإن لم يفعل فرط، فإن فرط ضيع، فإن ضيع أثم، وإن أثم سكن النار، والذي بعث محمداً بالحق»[3].

---

(١) المحاسن: ج١ ص٢٢٨ ب١٥ ح١٦١.

(٢) انظر مشكاة الأنوار: ص١٣٣ الفصل ٨ وفيه: «لو أتيت بشاب من شباب الشيعة لا يتفقه في دينه لأوجعته».

(٣) الأمالي للطوسي: ص٣٠٣ المجلس١١ ح٥١.

الفهرس

كلمة الناشر ١
آثار النضج ١٣
مراقبة النفس ١٥
وكيل السيد أبي الحسن الأصفهاني رحمه الله ١٦
النضج الاجتماعي ١٩
النضج حاجة عامة ٢٢
الاستشارة من مقومات النضج ٢٢
ضياع الجهود ٢٤
النضج الطبي ٢٦
النضج العلمي لدى الشيخ الأنصاري قدس سره ٢٩
نظرة إلى التاريخ العباسي ٣٢
نضج الميرزا الشيرازي قدس سره ٣٧
الهجمات الاستعمارية ٤٠
نور المؤمنين في القيامة ٤١
من هدي القرآن الحكيم ٤٥
النضج الفكري والحرية ٤٥

النضج وعواقب الأمور ٤٥
نور المؤمن في القيامة ٤٦
المؤمن وقور ٤٦
من هدي السنة المطهرة ٤٨
النضج الفكري والحرية ٤٨
النضج وعواقب الأمور ٤٩
المؤمن وقور ٥٠
نور المؤمن في القيامة ٥٠
النضج والتعلم في الشباب ٥٠
الفهرس ٥٢

مواقع جديرة بالمراجعة:

www.s-alshirazi.com

www.alshirazi.com

www.annabaa.org

www.14masom.com